

"بنو إسرائيل" بين التيه والزوال



الشيخ موسى خشّاب

في مشهد مهيب، عبّر بنو إسرائيل البحر وهم يشاهدون غرق فرعون وجنوده، فراحوا يرنّمون ترنيمة الشكر ﷻ تعالى. ولكن فجأة، علت سريعاً أصوات شكواهم وتذمّرتهم، والسبب، أنّهم عطشوا: "فتذمّر الشعب على موسى قائلين ماذا نشرب؟" (1)، ثمّ جاعوا: "فتذمّر كلّ جماعة بني إسرائيل على موسى وهارون في البريّة، وقالوا لهما: ليتنا متنا بيد الربّ في أرض مصر، إذ كنّا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع، فإنّكما أخرجتنا إلى هذا القفر لكي تميتا كلّ هذا الجمهور بالجوع" (2).

وحيث استجاب ﷻ لهم، وفجّر لهم موسى بعصاه اثنتي عشرة عينا، وأنزل ﷻ عليهم المنّ والسلوى، عادوا إلى الشكوى والتذمّر قائلين: ﷻ لَنْ نَمُوتَ بِمَيِّمٍ عَلَايَ طَعَامٍ وَاحِدٍ ﷻ (البقرة: 61). كيف وصف ﷻ تعالى في القرآن هذا الشعب المتمرد، المتذمّر؟ هل كان التيه عقاباً لهم أم نتيجة

منطقيّةٌ لسلوكهم؟ وهل الزوال... كذلك؟

* مجتمع متمرّد

بقي مجتمع بني إسرائيل متذمّراً طوَال رحلته مع نبيّ الله موسى عليه السلام، ولكنّه تحوّل بعد ذلك إلى مجتمعٍ متمرّدٍ، حين أمرهم موسى عليه السلام بجهاد عدوّهم ودخول الأرض المقدّسة، التي سينعم الله عليهم بها، فكان جوابهم: **إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَدَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذِرُكُم بِهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا** (المائدة: 22).

تتابع القصة، أنّ رجلاًين من الذين أنعم الله عليهما، كشفاً سرّاً عسكريّاً مهمّاً؛ وهو أنّ هؤلاء القوم الجدارين سينهزمون مباشرةً بمجرد وصول بني إسرائيل إلى باب المدينة، ورغم ذلك، كان جوابهم: **فَإِذَا ذُهِبَ أُنْتِ وَرَبُّكَ فَاقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** (المائدة: 22). لقد كانت تلك المرّة الأولى التي يعارض فيها بنو إسرائيل منقذهم من عذاب فرعون، ويتمرّدون عليه بشكلٍ صريح، وكانت عاقبة ذلك التمرّد: **قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتَيَهُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا تَأْسَوْا عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** (المائدة: 26).

بعد ذلك التيه، يأتي زمن زوال بني إسرائيل بحسب القرآن الكريم؛ حيث ربطت آيات سورة الإسراء بين فسادهم وعلوّهم، وبين زوالهم في وعده تعالى حين يرسل عليهم من تُيُوبُ ما علّوا تنبيراً.

والسؤال الذي يُطرح هنا: كيف ستزول هذه الغدّة السرطانيّة؟ وما هي أسباب ذلك؟

إنَّ المنهج القرآنيَّ في الحديث عن زوال الأمم ليس منهجاً توقيئياً؛ فالمنهج الإلهيَّ يرفض التوقيت بشكل عام: "كذب الوقّاتون" (3)، ولكنّه منهج سببيّ؛ بمعنى أنّهُ يوضّح الأسباب والعوامل المؤثّرة في بقاء الأمم وزوالها، قال تعالى: ﴿إِنَّ سَاءَ لَآئِغْيَبِرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيَّرُوا مَآ بِرَأْفُوسِهِمْ﴾ (الرعد: 11).

من هنا، نسلط الضوء على ثلاثة تحدّيات مرّ بها مجتمع بني إسرائيل، والتي ستساهم في زوال ذلك الكيان.

* التحدّي الثقافيّ

أحد التحدّيات التي مرّ بها مجتمع بني إسرائيل، هو التحدّي الثقافيّ؛ وهو تحدّي كبير يمكن أن يؤدّي إلى سلب هويّة المجتمع، من خلال سرعة التآثر بالثقافات الأخرى. وسنبيّن في هذا المجال نقطة الضعف الأساسيّة لدى المجتمع اليهوديّ، من خلال عرض مشهدين:

1- سرعة التآثر والتقليد: لم يكذب بنو إسرائيل يعبرون البحر حتّى صادفوا قوماً يقومون بعبادة أصنام لهم، يزيّنونها ويكرمونها ويسجدون لها، فقال بنو إسرائيل: "إنّنا أولى بتقدّيس إلها من هؤلاء، فاجعل يا موسى لنا إلهاً مثلهم". قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لَأَشْرَأْتِيلَ الْوَدَّحَرَ فَأَتَوَا عِلَآئِ قَوْمٍ يَعْبُكُفُونَ عِلَآئِ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الأعراف: 138).

تبيّن هذه القصّة سرعة تأثّر اليهود بالثقافات الأخرى، واللافت أنّ هذه القصيّة حصلت في ذروة شعورهم بالنصر على فرعون وجنوده. ومن المناسب هنا نقل المحادثة التي جرت مع أمير المؤمنين عليه السلام، فقد رُوي أنّ يهودياً قال لعليّ عليه السلام: لم تلبثوا بعد نبيناكم إلا ثلاثين سنة حتّى ضرب بعضكم وجه بعض بالسيف؟

فقال عليّ عليه السلام: "وأنتم لم تجفّ أقدامكم من ماء البحر، حتّى قلتُم لموسى عليه السلام: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة" (4).

2- النزوع نحو المادّة: بعد غياب موسى عليه السلام عن قومه لثلاثين يوماً في طور سيناء، طرح السامريّ فكرةً بدت جذابة لبني إسرائيل؛ وهي أن يتخلّصوا من حُلِيِّهم التي أخذوها من زينة قوم فرعون؛ ليتخلّصوا من أوزارها. وبالفعل، تخلّصوا من أقراطهم وأساورهم وقلاداتهم، وسلّموها للسامريّ، الذي كان قد أعدّ خطّةً، فألقى حُلِيِّهم في النار، وأخرج لهم منها عجلاً ذهبياً، وقال لهم: هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُهُ مُوسَى (طه: 88)، وأخبرهم أنّ موسى عليه السلام قد نسي إلهه هنا، وذهب يطلبه في الطور! فما كان موقف القوم الذين شهدوا تسع معجزاتٍ إلهيّة على يد موسى عليه السلام؟

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْرًا جَسَدًا لَّهُمْ خُورًا﴾ (الأعراف: 148)؛ وقد ذُكرت هذه القصّة في كتاب العهد القديم، مع تحريف أساسي في شخصيّة من أضلّ بني إسرائيل؛ ففي حين يذكر القرآن الكريم أنّ الذي أضلّ بني إسرائيل هو السامريّ، ذكرت التوراة أنّ الذي أضلّهم هو هارون عليه السلام؛ افتراءً عليه، كما هي عادة هذا المجتمع في الافتراء والكذب على رسل الله عليهم السلام.

واللافت في قصيّة عبادة العجل، أنّ غالبيّة بني إسرائيل قد عبده. وهذا شاهد قويّ على ضعف

الشخصية الثقافية لهذا المجتمع، وضعف وفلاحة مناعته أمام فكرة تخالف البديهيات العقلية والشرعية؛ وهي أن العجل المصنوع بأيديهم، لا يمكن أن يكون إلهاً. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنزَلَهُمْ لَكُلِّمَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوا وَكَاذِبًا كَذِبًا وَأَعْرَافًا﴾ (148).

* التحدي العسكري

من التحديات الأخرى التي مرّ بها مجتمع بني إسرائيل، هو التحدي العسكري، وسنبين من خلال شاهدتين مدى ضعف المعنويات والروحانية القتالية لديهم في الظروف العسكرية:

الأول: الجبن والخذلان:

يعرض لنا القرآن الكريم قصة بني إسرائيل الذين كانوا يطالبون نبياً لهم من بعد موسى عليه السلام بأن يجعل لهم ملكاً يقاتلون تحت رايته، فقال لهم نبيهم الخبير بهم وبطبايعهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا؟﴾ (البقرة: 246)، وهذا ما حصل حيث يخبرنا القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ (البقرة: 246).

الثاني: ضعف الإرادة وفلاحة الصبر:

حين سار بهم طالوت لملقاة جالوت وجنوده، مرّوا بنهر، فطلب منهم طالوت أن لا يشربوا منه أكثر من غرقة كفاً؛ لأنّه أراد مواجهة جالوت بأصحاب إرادة قويّة، لدرجة أنّهم رأوا لمعان الماء وهم عطشى، ولكن طُلب منهم عدم الشرب، وكانت النتيجة: ﴿فَشَرِبُوا مِنِّهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ (البقرة: 249). وهكذا، لمّا برزوا لجالوت وجنوده ﴿فَقَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ

وَجُنُودِهِ ۖ (البقرة: 249). ثبتت في المعركة قِلاَّة قليلة صابرة منهم، في حين أنَّ الفئة الكبيرة منهم لم تقاتل، وفئةٌ أخرى تراجعت قبل الوصول إلى ساحة المعركة، وفئةٌ ثالثة تخلَّفت في ساحة المعركة حين رأَت الأعداء.

الثالث: الحرص على الدنيا:

النتيجة: إنَّ مجتمع بني إسرائيل لا يمتلك شجاعة المواجهة والصبر على الظروف العسكريَّة الصعبة، ولا يمتلك قوَّة التحمُّل في الحروب الطويلة؛ ولذلك يقول تعالى في وصفهم: ۖ لَا يُقَاتِلُونَكَ مَجْمِيعًا إِلَّا فِي قُرَىٍّ مَّحْصَنَاتٍ أَوْ مِنِّ وَرَاءِ جُدُرٍ ۖ (الحشر: 14). ونقطة ضعفهم الأساسيَّة: ۖ وَلَتَجِدَنَّ رَهْمًا أُحْزِرَصَ دُنَىٰ النَّاسِ عِلَآءَ حَيَاةٍ ۖ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۗ (البقرة: 96).

* التحدِّي الاقتصادي

يتبيَّن للقارئ الكريم من خلال هذا السرد، ضعف قدرة مجتمع بني إسرائيل على التحمُّل والصبر، سواء بعد خروجهم من مصر وتذمُّرهم عند ابتلائهم بالجوع والعطش، أو قِلاَّة صبرهم بعد أن أنزل الله عليهم المن والسلوى؛ وهذا التحدِّي الاقتصادي هو تحدِّي آخر مرَّ به هذا المجتمع وقد وصفهم القرآن الكريم في هذا المجال، بالتالي:

1- فسوة القلوب: قال تعالى: ۖ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ ۖ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۖ (البقرة: 74).

2- الجشع: كما بيّنت الآيات الكريمة مستوى جشعهم وطمعهم في الظروف الصعبة، حين تحدّثت عن أكلهم أموال الناس بالباطل، وعن كون مجتمعهم مجتمعاً ربويّاً. قال تعالى: ﴿وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ بِرَأْسِهِمْ وَغَدَقَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ لَئِنْ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَىٰ رَأْسِهِمْ لَفُضِّلُوا فِي الْعَذَابِ لَدُنِّهِ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهُ لَئِنْ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَىٰ رَأْسِهِمْ لَفُضِّلُوا فِي الْعَذَابِ لَدُنِّهِ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهُ﴾ (النساء: 161)، ووصفهم أيضاً أنّهم: ﴿أَكْثَرُ النَّاسِ كُفْرًا وَلَئِنَّكُمْ لَتَلْمِزُونَ لِلَّسِّ لِحَدِيثِهِ﴾ (المائدة: 42).

* التحديّات.. سببٌ للزوال

إنّ الهدف من هذا السرد، ليس عرض وقائع تاريخيّة، قد يبدو أنّ الزمن طوى عليها صفحاته الغابرة، وإنّما للإضاءة على حقائق ووقائع هي في غاية الأهميّة، تعكس طبيعة هذا المجتمع الهشّ من الداخل، الذي كان، ولا يزال، قائماً على تحدّيات وتهديدات جعلت منه مجتمعاً غير متماسك، وستكون، إلى جانب عوامل أخرى، سبباً في زواله. بل يمكن القول، إنّ صفات هذا المجتمع، وطبائعه، هي نقاط ضعفه، وصكّه هزيمته، وإعلان زواله بإذن الله.

1- سفر الخروج، الإصحاح 25: 14.

2- سفر الخروج، الإصحاح 2-3: 16.

3- الكافي، الكليني، ج 1، ص 368.

4- مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج 1، ص 324.

المصدر: مجلة بقیة الله

